الورقة الرابعة

انعكاسات المعركة على مستقبل العلاقات الفلسطينية الداخلية

أنيس قاسم فوزي*

ربما كان في الفصل بين الانعكاسات الاستراتيجيه الداخلية من العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة، على المستويين الفلسطيني والعربي، بعض التعسف، لأن النظام الفلسطيني وما ينطبق عليه هو في الواقع جزء لا يتجزأ من النظام العربي وما ينطبق عليه، ومن هنا نود أن نتجاوز الحدود المرسومة في هذا المجال على أمل أن تكون الصورة أوضح عند تحليل الأبعاد الإستراتيجية لنتائج العدوان على غزة.

من الصعب البحث في نتائج معركة غزه، دون الدخول أولاً في وصفها، وما أحدثته من ردود فعل فلسطينيه وعربيه أثناءها وبعدها، وما كشفت عنه من مواقف ربما كانت دفينة أو واقعه في المناطق الرمادية ولم تتضح معالمها بعد، على أساس أن خفايا العدوان ومواقف بعض الأطراف الفلسطينية والعربية ما زالت غير معلنة أو غير واضحة، ولهذا فإنه عند معالجة ما حدث في غزة، لا بد من استعادة معركة جنوب لبنان في صيف ٢٠٠٦ ومواقف البطولة للمقاومة ومواقف العار لبعض رموز النظام العربي.

ليس من الصواب البحث في السؤال الذي أرّق الجميع، وهو: هل انتصرت حركة حماس في معركة غزه أم هُزمت؟ وهل حقق الجيش الإسرائيلي أهدافه؟ وفي الواقع لم تكن الأهداف الإسرائيلية واضحة ومحددة بل كانت متقلبة، وأصابها الإرباك، ولا أدل على ذلك من مقاربة تصريحات رئيس الوزراء أولمرت مع تصريحات وزير الحرب باراك مع تصريحات وزيرة الخارجية ليفني، لأن الانتصار هنا لا يُقاس بالمقاييس التقليدية للانتصار والهزيمة، ولا أتصور أن قياده المقاومة الفلسطينية كانت تتصور أن تهزم الجيش الإسرائيلي، وربما كان الأهم من هذه المفاضلة، هو التأكيد على أن قوات الاحتلال

---

* **د. أنيس قاسم فوزي:** محام وأستاذ قانون دولي- الأردن.

الإسرائيلي قد خرجت من غزة وهي مثقلة بالخزي والعار، والإدانة الدولية بسبب الجرائم التي ارتكبتها بحق المدنيين العزّل في القطاع، وهذا هو "العار" الذي سيظل يلاحق إسرائيل وقادتها وجيشها.

وعند النظر إلى معركة غزة من هذه الزاوية، نقول: لقد انتصرت المقاومة الفلسطينية في غزة، وألحقت المقاومة العار بالسلاح الإسرائيلي الذي تطاول على الأطفال والمدنيين العزّل.

حرب غزة والترددات العربية والفلسطينية

لا شك أن معركة غزة قد أحدثت ترددات عميقة وواسعة فلسطينياً وعربياً، ومن الصعب جمع هذه الترددات هنا، ولكن ربما يمكن تسجيل الملاحظات التالية:

أولا: قد تكون معركة غزة في جوهرها الفصل الثاني من معركة بدر الكبرى، ذلك أن التاريخ العربي وفي بدايات البعثة النبوية شهد في تلك المعركة انهيار رابطة الدم ونشوء رابطة الفكر والسياسة، حيث إنه ولأول مرة اصطف الأخ الكافر ضد أخيه المسلم، والولد الكافر ضد أبيه المسلم، والعم الكافر ضد ابن أخيه المسلم، فلم تبدأ عملية الاصطفاف الجديدة في المجتمع العربي آنئذٍ على أساس الدم والعشيرة والقبيلة والفخذ، بل على أساس الفكر الجديد والمنهج الجديد والسياسة الجديدة التي أوجدها الإسلام.

وجاء العدوان الإسرائيلي على غزة وكأنه تكرار للتجربة السابقة نفسها، فقد أعيد الاصطفاف العربي على أساس الفكر والسياسة والمبدأ، فقد اصطفت بعض رموز النظام العربي، بما فيه النظام الفلسطيني، في صف العدوان والاحتلال والهمجية الإسرائيلية، بل نقل عن بعضهم أقوال شماتة في أوج المعركة، وكرر قادة الاحتلال الإسرائيلي، من مدنيين وعسكريين، بأن عمليتهم العسكرية تتفق مع رغبات بعض رموز النظام العربي بمن فيهم الفلسطيني، ولم تصدر تصريحات من الجانب العربي والفلسطيني تنفي ذلك، مع العلم أن بعض القرائن كانت شديدة الدلالة، بل كانت ناطقه تؤكد هذا التواطؤ العربي والفلسطيني مع العدوان الإسرائيلي، وما علينا إلا

مراجعة ومقاربة ما جرى في قمتي الدوحة والكويت والمؤتمر الدولي في شرم الشيخ، ومن الجهة الأخرى كان الانحياز الشعبي والمجتمع المدني وقادة الرأي والفكر واضحاً في صف المقاومة، بل وأكثر من ذلك، ثبت على وجه اليقين، أن هناك دولاً إقليمية وغير إقليمية، وغير عربية، وإسلامية وغير إسلامية أخذت مواقف وأطلقت تصريحات منددة بالعدوان ومؤيدة صمود الفلسطينيين في قطاع غزة أكثر جرأة مما قاله بعض رموز الاعتدال العربي والفلسطيني.

ثانيا: لقد كان العدوان الإسرائيلي على غزة، يشبه إلى حد بعيد العدوان الذي قام به جيش الاحتلال الإسرائيلي على جنوب لبنان في صيف عام ٢٠٠٦، من حيث أنه أماط اللثام عن مواقف عربية رسمية ظلت متدثرة بعباءة العروبة، فإذا بإسرائيل تنزع هذه العباءة وتفضح الموقف العربي الرسمي، حيث قال بعضهم إن حزب الله قد قام بمغامرة، وإنه جرّ لبنان إلى حرب هو في غنى عنها، وإن قرار الحرب يجب أن يكون في يد الدولة وكذلك قرار السلم، وإنه لا يجوز لفصيل أو حركة أن تجرّ الدول العربية إلى مواقف لم تُستشر فيها، وتتكرر هذه الأطروحات أو أطروحات مماثله فيما يتعلق بما جرى في غزة وذلك بقصد تجريد حركة حماس من مبرراتها الوطنية والنضالية، فقد شنت بعض وسائل الإعلام الرسمية العربية هجومها على حماس، إلى حد تبرير العدوان الإسرائيلي بأنه جاء ردا على صواريخ المقاومة الفلسطينية التي تطلقها حماس والتنظيمات الفلسطينية الأخرى باتجاه المدن الفلسطينية في جنوب فلسطين المحتلة.

إن الظاهرة المذهلة التي انكشفت خلال المعركة، والتي انزاح عنها الستار هو أن النظام الفلسطيني الرسمي، كان في صفوف رموز النظام العربي الذي تخفّى خلف يافطة الاعتدال العربي، وهو الاسم الحركي الجديد لرموز نظام عربي متواطئ أمريكيا وإسرائيليا، إنه معسكر الجاهلية الجديدة، وأقول إنها ظاهرة "مذهلة" ومخزية، لأن شلال الدم الدافق في غزة الذي سال خلال المعركة، لم يشفع لهؤلاء الضحايا لدى أوساط البلاط الفلسطيني الرسمي، وأن ممثلي السلطة الفلسطينية

فشلوا في إيجاد أعذار يختبؤن خلفها لتبرير مواقفهم المذّلة المتواطئة مع الاحتلال، إنها حقاً ظاهرة مذهلة لأن حجم الجريمة التي ارتكبتها قوات الغزو لم يكن مسبوقاً أو مبرراً أو مفهوماً، وظاهرة مخزية لأن أركان السلطة الفلسطينية وبعض رموز النظام الرسمي العربي كشفت المعركة القناع عنهما وعجزا عن تبرير مواقفهما أمام الجماهير الفلسطينية والعربية.

ومن الواضح، أن النظام الفلسطيني- كما كشفت عنه معركة غزة- هو أخطر ما يهدد القضية الوطنية أو ما تبقى منها في الضفة الغربية، أليس غريباً أن هذا النظام الفلسطيني هو نفسه الذي جرّ العربة الفلسطينية إلى أوسلو؟ وهل صدفة أن الترويكا الفلسطينية التي فاوضت على أوسلو وعايشت محرقة غزّه هي نفسها التي تمسك حالياً بزمام القرار الفلسطيني وتمسك كذلك بتلابيب القضية، وتحظى بكل هذه الرعاية الدولية والمجاملات العربية الرسمية؟ إن معركة غزه تدق جرس الإنذار للفلسطينيين في الداخل والخارج، وإنه إذا ما أرادوا إنقاذ قضيتهم فإن عليهم التخلص من أوسلو ورموز أوسلو وفرز قيادة تليق بمعركة غزة.

ولكي يخفي النظام الفلسطيني عوراته التي لا تنفع فيه الآن كل أوراق التوت، فإنه يلوم حركة حماس على قيادتها للمقاومة في غزة، بحجة أنها جلبت الدمار لأهلنا في غزة، وأن ما قامت به حركة حماس ليس إلاّ خدمة لأجندات إقليميه، وهذا التعبير يعني إيران، بدلا من توجيه اللوم لإسرائيل على ما ارتكبته من محرقة ضد الفلسطينيين في القطاع، وهكذا يساهم النظام الفلسطيني في تدوير أوراق التوت العربية ويصطنع لنا عدواً وهميا اسمه إيران، بينما العدو الحقيقي للشعب الفلسطيني هو إسرائيل، وأنا لست في موقف الدفاع عن إيران بداية، إلاّ أنه من الرشاد القول إن المنطقة العربية تعاني من فقدان القدرة العربية، بمعنى أنه لا توجد حالياً كتلة عربية ذات وزن إقليمي أو دولي، أي إن فراغاً خطيراً قد حدث في المجال العربي، وهذا الفراغ لا بدّ من إشغاله بالقوة الإسرائيلية أو بالقوة الإيرانية، وإن كان للعرب- غير الرسميين وغير ممثلي النظام العربي- من خيار، فإن العقلانية تقتضي دائماً الوقوف في وجه الخطر

الصهيوني، ذلك أنه خطر استيطاني، وهذا أشدّ أنواع الاستعمار، ولا أود أن أضيف أن ما يجمعنا مع إيران أكثر بكثير مما يفرقنا، إلاّ أنه بالتأكيد لا يمكن وضعه في الميزان مع الخطر الصهيوني، لست غافلاً أن هذا الرأي يتعارض مع مواقف النظام العربي "المعتدل" الذي يعتبر الخطر الإيراني أشد من الخطر الصهيوني، وقد رددت تسيبي ليفني في أكثر من مناسبة على لسان رموز هذا النظام أنهم يشتركون مع إسرائيل في القناعة أن الخطر عليهم وعلى إسرائيل هي إيران، وللغرابة، لم نسمع بيان شجب أو استنكار أو تكذيب لما ادعته ليفني.

إن النظام العربي المعتدل هو الذي اخترع لنا في أواسط القرن الماضي "الخطر الشيوعي"، وأرهبنا النظام بمقولة إن ذلك هو الخطر الذي يجحد وجود الله ويتعارض مع مبادئنا وتقاليدنا، إلى آخر مسلسل الموبقات التي ألصقت بالمعسكر الاشتراكي حينئذ، ثم نكتشف أن تلك لم تكن حرباً عقدية، بل كانت ذريعة تبرر الانهزام والتستر خلفها لستر عورات المصالح الشخصية لممثلي النظام، إن ذاك النظام المعتدل ما زال معتدلا في العصر الحالي إنما على نحو أخطر وأشدّ ألماً، ذلك أنه يتحالف مع أخطر عدو للأمه وأشرس شكل من أشكال الاستعمار، إنه الاستعمار الاستيطاني الصهيوني.

إن هذا الانحدار الشديد في موقف النظام العربي المعتدل، بما في ذلك موقف قيادة السلطة الفلسطينية، هو نذير شؤم وبؤس لمستقبل هذه المنطقة، ولا سيما للقضية الفلسطينية، وإذا وصلت الموازنة بين إيران وإسرائيل، ثمّ تنحاز لإسرائيل، فإن القضية الوطنية تعيش أكثر أيامها بؤساً ونكداً.

ثالثا: أما ثالث هذه الترددات فهي حالة الفصام التي أصابت حركة فتح، وهي الفصيل الأهم في الساحة الفلسطينية وقائدة النضال الفلسطيني لأكثر من أربعة عقود، نتيجة هذه المعركة التي ارتفع فيها منسوب الجريمة الإسرائيلية إلى حدود غير مسبوقة وهزت مشاعر العرب والفلسطينيين بل والعالم أجمع، ما هو دور حركة فتح وما هو

موقفها وماذا اتخذت من مواقف وإجراءات؟ ليس صعباً أن نتصور حالة الغليان والارتباك التي وقعت في أوساط الحركة، إلاّ أنه، ولسوء الحظ، لم تخرج الحركة من إطار هزيمتها في الانتخابات التي جرت في كانون ثاني/ يناير عام ٢٠٠٦، ولا زالت تعيش حالة الكابوس، وعدم تصديق ما جرى لها من خسارة، وهي التي تعتبر نفسها "أم النضال" الفلسطيني.

لا شك أن قيادة فتح قد حازت على الشرعية الثورية عبر نضالات طويلة ومعارك بارزة في المسيرة الفلسطينية، وكان حصار بيروت لما يقارب ٣ أشهر ملحمة مضيئة في الجسارة والثبات، وحازت فتح على الشرعية الدستورية بنجاحها في الانتخابات العامة التي جرت عام ١٩٩٦، وكررت حماس التجربة ذاتها، إذ حازت على شرعيتها الثورية بالنضال القاسي والدموي، وعبر معارك وتضحيات، كما حازت على شرعيتها الدستورية في انتخابات عام ٢٠٠٦، وبرغم من يختلف مع هذه ويتفق مع تلك، فإن تداول السلطة أمر مقبول ومرغوب فيه، ولا يجوز الانقضاض عليه بغير صناديق الانتخاب، وإلاّ أصبحنا مراوغين وملوّنين بألوان الديمقراطية الأمريكية والمقاسات الصهيونية، وما لم تقتنع حركة فتح أن الذي يحسم الخلاف هو صناديق الاقتراع، فإن مستقبل العلاقة بين الأطراف الفلسطينية سيظل يراوح مكانه، نسمع خلاله كثيراً عن الخطوط الحمر، ولا نرى إلاّ كثيراً من الدماء والرياء.

الانعكاسات الاستراتيجية

إن أولى الانعكاسات الاستراتيجية لمعركة غزة هو وجوب إعادة النظر فيما يسمى "المبادرة العربية"، لقد سبق وأن تمّ نقد هذه المبادرة، وما زالت تجري عليها مراجعة وإعادة نظر، كما حدث في مؤتمر الدوحة، إلاّ أنه يجب سحبها نهائيا، واتخاذ قرار استراتيجي بذلك، حيث إن معركة غزة، وقبلها معركة جنوب لبنان، أثبتتا بما لا يدع مجالاً للشك أن هذا العدو الإسرائيلي عدوٌّ فيه توحّش فطري وغريزة عدوانية لا تنزع منه، وعلى العرب، أنظمة بكل ألوانها، وشعوباً بكل طوائفها، أن تستقرّ على هذا وتتعامل مع هذا العدو على أساسه.

إن كان يليق بدول عربية أن تعقد هدنة مع هذا النظام العنصري المتوحش لمتطلبات المرحلة وضروراتها، فإنه لا يليق بذي الحِجى أن يتحدثوا عن سلام معه، فالسلام وإسرائيل- كما أثبتت ستة عقود من الممارسة- عنصران لا يمتزجان، كما الماء والزيت.

وعلى الحركات المقاومة لهذا العدو المتوحش أن تنحاز نهائياً إلى أطروحة مؤداها أن جزءاً من النظام العربي لن يخرج عن طوق الباب العالي، وسيظل رهيناً له، لا طوعاً ولا اختياراً وإنما ثمناً لوجوده ... إن بعض رموز الاعتدال، ومنذ ستة عقود، لم يتغيّر ولم يتبدل، وليس ذلك بلادة في التفكير ولا تخلفاً في الاستيعاب، بل انسجاماً مع سبب وجوده واستمراريته، وإن محاولة جرّه إلى خارج سربه هي إضاعة للجهد والوقت، وإرباك لخطط المواجهة وحشد الطاقات.

وختاماً، فإن معركة غزه تفرض على حركة فتح إعادة النظر في ذاتها كحركة وطنية أصابها شلل أوسلو، وفي استراتيجيتها من أن مقاومة الاحتلال هي البديل الأقرب إلى الصواب والأكثر انسجاماً مع مصالح شعبها، ولا بدّ لذوي الرأي من أهل الحل والعقد في فتح من إدراك أن هذا العدو المتوحش لم يتغيّر منذ مؤتمر بازل، وللتدليل على صحة ذلك، فإن الرأسمالية تغيّرت وتبدلت من رأسمالية أمريكا إلى الرأسمالية الإسكندنافية، وإن الشيوعية تغيرت من مجتمع روسيا إلى الصين إلى يوغسلافيا إلى كوبا وفنزويلا، أما الصهيونية، فما زالت ثابتة، بل تزداد جنوحاً نحو اليمين وتزداد غطرسة وعنصرية، وتأبى إلا تشترط على العرب الآن الاعتراف بإسرائيل "دولة الشعب اليهودي"، فهل أدركت فتح أبعاد هذا الشرط ومخاطره على مستقبل الأمة قبل حاضرها؟!